

سياسة التعليم الفرنسية بالجزائر وموقف الجزائريين منها إبان الثورة التحريرية (1954-1962)

د. عبد القادر بوحسون¹

لقد طبق الاحتلال الفرنسي طيلة تواجده بالجزائر سياسة استعمارية فريدة من نوعها، حيث شملت مختلف المجالات: السياسية، العسكرية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية، وكان الهدف من ورائها هو إخضاع الجزائريين وضمان ولائهم لفرنسا من أجل تحقيق حلم "الجزائر فرنسية". فبالإضافة إلى السيطرة العسكرية والاستغلال الاقتصادي لمختلف الموارد الطبيعية والبشرية عمل الاستعمار جاهدا على جعل الجزائر قطعة لا تتجزأ من التراب الفرنسي أرضا ولغة وثقافة ودينا، ومن أجل تحقيق ذلك انتهج المستعمر سياسة تعليمية مدروسة وممنهجة. فما هو مفهوم السياسة التعليمية الفرنسية؟ وما هي أهدافها ووسائلها؟ وكيف تعامل معها قادة الثورة التحريرية؟

في الحقيقة إن السياسة التعليمية هي جزء من السياسة الاستعمارية التي طبقتها فرنسا في الجزائر، ولما كان التعليم قضية مصيرية في حياة الأمم حاضرها ومستقبلها، وأحد المعايير الرئيسية لقياس رقي المجتمعات وازدهارها⁽²⁾، فقد ركزت عليه الإدارة الاستعمارية أيما تركيز لجعله أداة فعالة للاستعمار ونشر الأمن والسلام للمستوطنين، وهو ما عبر عنه أحد المسؤولين الفرنسيين بقوله: "إن الأداة الأكثر نجاعة لتحقيق السلم الكامل تتمثل في نشر اللغة الفرنسية وتعميمها بين الأهالي"⁽³⁾، كما صرح الدوق دومال Duc daumal: "إن الفتح (الإستعمار) يجب أن يتم بوسيلتين: السيف والمدرسة معا"، وقال أيضا: "لنشر السلام فإن فتح مدرسة بين الأهالي له من الأهمية ما يضاهي نشر كتيبة عسكرية في منطقة ما"⁽⁴⁾.

وعلى هذا الأساس ركزت فرنسا كثيرا على التعليم لعلها تخلص إلى استعمار لا يمكن محو آثاره، وذلك بعد تحطيم بنية المجتمع الجزائري، والقضاء على الأسس المادية والروحية التي يقوم عليها، وتحديد القيم الحضارية التي يستند إليها بمحاصرة الشعور الديني ومحاربة اللغة العربية، وإثارة النعرات القبلية وتوطين المستوطنين⁽⁵⁾.

¹ أستاذ التاريخ بجامعة د مولاي الطاهر سعيدة

² محمد فاضل الجمالي، فلسفة التعليم عند الشيخ البشير الإبراهيمي، مجلة الثقافة، العدد 87، جويلية أوت 1985، ص 323.

³ أحمد مهساس، الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة، ترجمة سعيد محمود، محمد عباس، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، 2002، ص 399.

⁴ عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 121.

⁵ ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 20.

وحتى تتمكن فرنسا من تحقيق ذلك اتبعت سياسة مخادعة ظاهرها تعليم الجزائريين وتمدينهم والقضاء على الجهل والأمية وباطنها تحطيم بنية المجتمع الجزائري وتمزيق أواصره، فشرعت في إنشاء المدارس الخاصة بالجزائريين، والتي توخى منها منظرو المدرسة الاستعمارية تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية وهي: الفرنسية، التنصير والإدماج.

1.الفرنسية:

المقصود بالفرنسية استبدال اللغة العربية باللغة الفرنسية وجعلها لغة التخاطب حتى تنقطع جميع الروابط التي تربط الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا بثقافتها العربية وتاريخها الإسلامي، وتنشئ جيل جديد صاعد في ظل سياسة الفرنسية⁽¹⁾.

وقد جاء في إحدى التعليمات الصادرة إلى الحاكم العام بالجزائر غداة الاحتلال: " إن إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تُصبح لغتنا هناك قومية، والعمل الذي يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي إلى أن تقوم محل اللغة العربية"⁽²⁾.

ومحاولة لتحقيق تلك الأهداف بادرت الإدارة الإستعمارية بإنشاء المدارس العربية الفرنسية، والتي كان الهدف منها قولبة الشبان الجزائريين في قالب فرنسي ليكونوا نماذج لحضارة المستقبل حسب زعمها⁽³⁾.

2.التنصير:

من أهداف السياسة التعليمية الفرنسية كذلك تنشيط الحركة التنصيرية وتشويه المؤسسات الدينية الجزائرية، وكان هذا منذ الوهلة الأولى للاستعمار وتواصل حتى خروجه، فقد صرح الجنرال دوبرومون سنة 1830 للقساوسة بقوله: " إنكم أعدتم معنا فتح باب المسيحية في افريقيا ، ولنأمل أن تينع قريبا الحضارة التي انطفت في هذه الربوع"⁽⁴⁾، كما صرح الكاردينال لافيغري سنة 1869 قائلاً: " علينا أن نُخلص هذا الشعب من قرآنه، وعلينا أن نعني على الأقل بالأطفال لتنشئتهم على مبادئ غير التي شب عليها أجدادهم، فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين على العالم المتحضر"⁽⁵⁾.

3.الإدماج:

¹ رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية 1931.1965، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 105.

² أحمد بن نعمان، حزب البعث الفرنسي، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، 1996، ص 39.

³ أحمد مهساس، التعليم والثقافة في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، مجلة الثقافة، العدد 85، ماي جوان، 1985 ص 60.

⁴ عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1999، ص 66.

⁵ الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، ط1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1994 ص 33

يُقصد بالإدماج جعل الجزائريين سياسيا وثقافيا واجتماعيا فرنسيين، كما يعني كذلك جعل الجزائر إقليما فرنسيا وإلغاء كل الاختلافات الإدارية بين الجزائر وفرنسا⁽¹⁾، وكان الإدماج هدفا من أهداف السياسة التعليمية الفرنسية، فمن خلال المدرسة حاولت فرنسا أن تكون أشخاصا مجنسين و مغتربين ثقافيا وإداريا ولا تربطهم أية صلة بالمجتمع المهزوم والمسيطر عليه⁽²⁾.

وجدير بالذكر بأن هذه الأهداف الثلاثة (الفرنسة، التنصير والإدماج) كانت من أولويات السياسة الفرنسية منذ الاحتلال وإلى غاية الاستقلال ، ولتحقيق هذه الأهداف اتخذت فرنسا عدة وسائل وطرق طبقت في التعليم الحكومي، وإجراءات ضد التعليم العربي الحر.

فهذا الأخير (التعليم العربي الحر) ضيقت عليه فرنسا إلى أقصى حد في محاولة منها للقضاء على تعليم القرآن الكريم واللغة العربية، ولمّا كانت الأوقاف الإسلامية هي المصدر الأساسي لتمويل التعليم العربي الحر فقد أصدرت إدارة الاحتلال عدة قرارات وقوانين مكملة ومراسيم متدرجة وفي فترات متلاحقة لوضع اليد عليها والتصرف فيها، من خلال إخضاع الوقف لقوانين المعاملات العقارية الفرنسية⁽³⁾، مما يعد ضربة موجعة للتعليم الإسلامي، فمردود هذه الأوقاف كان يسد النفقات الضرورية للمشتغلين بالتعليم والقائمين على أماكن العبادة والتعليم من قضاة وأئمة ومدرسين وطلبة وغيرهم، بالإضافة إلى توفير دخل يغطي تكاليف رعاية وإصلاح هذه المؤسسات⁽⁴⁾.

كما عملت الإدارة الاستعمارية ما في وسعها لإبعاد التلاميذ الجزائريين عن تلك المدارس، ولمّا فشلت في ذلك عملت على إغلاقها ومنعها من مباشرة أعمالها وهدم الكثير منها، وقامت بإجراءات تعسفية ضد معلميها ، ولم تسلم من هذه الإجراءات حتى المساجد والكتاتيب⁽⁵⁾ التي حُول بعضها إلى كنائس والبعض الآخر إلى مخازن للأسلحة والذخيرة⁽⁶⁾.

وهذا ما عبر عنه المؤرخ الفرنسي موريس وال Maurice wal بقوله: " فقد بدأنا بالتخريب والتدمير الكامل للمدارس الابتدائية والزوايا الريفية وغيرها"⁽⁷⁾.

¹ رايح تركي، المرجع السابق، ص 113.

² أحمد مهساس، التعليم في الجزائر، المرجع السابق، ص 74.

³ بن عكى محمد آكلي، ديموقراطية التعليم النظامي في الجزائر خلال الفترة 1962-1984 بين الواقع والإنجاز، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1987-1988، ص 99.

⁴ سعيدوني، المرجع السابق، ص 2220.

⁵ على سبيل المثال كان بمدينة الجزائر لوحدها 166 مسجد وزاوية وكتاب غداة الاحتلال، لم يبق بعد الاحتلال سوى القليل منها لا يتجاوز العشرين.

⁶ بوفلجة غيات، التربية والتكوين بالجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 27.

⁷ بن عكى محمد آكلي، المرجع السابق، ص 100.

ومواصلة منها في التضييق على التعليم العربي الحر أصدرت فرنسا قانونا في 08 مارس 1938 نص على منع تعليم اللغة العربية سواء في المساجد أو الزوايا إلا بإذن من سلطات الاحتلال حتى تمنح رخصة لذلك، والغريب في الأمر أن هذا القانون وغيره لم يطبق إلا على التعليم العربي الإسلامي، أما المدارس التصيرية والتعليم العبري فقد استثنيا من هذه القوانين، أما من كان يخالف هذه التعليمات من الجزائريين فكان يتعرض لعقوبات صارمة⁽¹⁾.

وهذه الإجراءات كلها كانت بهدف صرف الجزائريين عن تعليمهم الأصل وتوجيههم للتعليم الحكومي الفرنسي المخصص لهم، والذي هو بدوره تعرض للتضييق والتمييز إلى أقصى حد ممكن، ويظهر ذلك جليا من خلال عدد الجزائريين الضئيل الذي التحق بتلك المدارس مقارنة بعدد التلاميذ في سن الدراسة، كما أن هذا التعليم لم يُعمم على كافة طبقات المجتمع الجزائري، وإنما اقتصر على فئة محدودة تكون بمثابة الجسر الواصل بين فرنسا وبقية الجزائريين بعد أن تغرس فيهم أفكارها وإيديولوجيتها، والجدول التالي يبين انقسام فئات المجتمع الجزائري بين التعليم العربي الحر والتعليم الحكومي خلال الفترة الممتدة من 1883 إلى 1939⁽²⁾:

الأصل الاجتماعي	بداية المنهج الدراسي	فروع التعليم	نهاية المنهج الدراسي	السلك المهني
. النخبة . البورجوازية . الأرسقراطية العقارية . الموظفون بالقطاع العمومي	المدرسة الفرنسية التعليم الإبتدائي	مدارس ابتدائية ثانويات دروس إضافية	جامعات فرنسية	مهن حرة (طب، محامات) . مهن إدارية . التعليم
. التجار الصغار . الفلاحون . الفقراء		. الكتابات . الزوايا مدارس الإصلاح	جامعات عربية (الزيتونة، القرويين، الأزهر)	. تعليم عربي بالوعظ والإرشاد

¹ عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1962.1830، ج1، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2003، ص 45، رابح تركي، المرجع السابق، ص 175.

² بن عكي، المرجع السابق، ص 180

ومن خلال الجدول يتضح أن التعليم الحكومي لم يكن لعامة المجتمع وإنما اقتصر على الطبقة المرموقة، ونتيجة لتلك السياسة كان عدد التلاميذ ضئيلا جدا في هذه المدارس، ففي سنة 1954 لم يتجاوز عددهم 6000 تلميذ، في حين بلغ عدد تلاميذ الأوربيين 30000 ، وبمعنى آخر 90% من سكان الجزائر (الجزائريين) كان نصيبهم من التعليم 20%، في حين 10% من السكان (الأوربيين) استحوذوا على 80% من التعليم⁽¹⁾.

ويضاف إلى هذا كله فقد قامت إدارة الاحتلال بفرض تكاليف باهظة على الجزائريين الراغبين في التعلم فاقت إمكانيات معظمهم، فكانت مصاريف الدخول إلى الثانويات تتراوح بين 40 و50 ألف فرنك تضاف إليها تكاليف الملابس والكتب والأدوات المدرسية⁽²⁾.

وبعد اندلاع الثورة التحريرية اتخذ المعمرون من ذلك ذريعة لضرب الثقافة العربية الإسلامية والقضاء على اللغة العربية أكثر من أي وقت مضى بحجة أن القرآن الكريم واللغة العربية وسيلة الدعوة للثورة على الاستعمار⁽³⁾.

وقد نتج عن ذلك كله تدهور التعليم وانتشار الأمية في أوساط الجزائريين، وهو ما عبر عنه أحد الموظفين الفرنسيين الكبار ويدعى أوجين فورميستر Eugene Fourmestraux بقوله: "لقد فرطنا في تعليم الأهالي حتى نزل إلى مستوى هو أدنى بكثير مما كان عليه قبل الاحتلال"⁽⁴⁾.

فقد بلغت نسبة المسجلين بالمدارس الفرنسية في التعليم الابتدائي موسم 1954 . 1955 15% فقط، أما التعليم الثانوي فبلغت نسبة المسجلين به في نفس الموسم 25,3%، وفي سنة 1960 بلغت 3,95% ولم تتجاوز هذه النسبة 1% في التعليم التقني، أما التعليم العالي فهو الآخر كان عدد الطلبة الجزائريين المنتسبين إليه قليلا جدا وهو ما يوضحه الجدول التالي⁽⁵⁾:

1	19	19	19	19	19	19	ال سنوات
196	60	59	58	56	54	54	
13	13	81	42	26	58	58	عد د الطلبة
72	17	4	1	7	9	9	

¹ رايح تركي، المرجع السابق، ص ص 152 . 157.

² المرجع نفسه، ص 164.

³ محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 44.

⁴ Mostafa I achraf ,l'Algerie nation et société,2eme édition,s.n.e.d,alger,p63 .

⁵ عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830 . 1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص ص 152 . 154.

وهو عدد قليل جدا مقارنة بعدد السكان البالغ آنذاك 9 ملايين نسمة، وهو ما يفسر ارتفاع نسبة الأمية في أوساط الجزائريين، والتي بلغت 92% في جانفي 1962⁽¹⁾.

وأمام هذه الوضعية المزرية للتعليم والسياسة المدروسة من قبل سلطات الاحتلال السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف تعامل قادة الثورة مع هذا الواقع؟

لا عجب أن يكون لقادة الثورة التحريرية إستراتيجية لمجابهة هذه السياسة التعليمية الرامية إلى طمس الشخصية الوطنية مادام أن غالبيتهم قد درس في الكتاتيب والزوايا ومدارس جمعية العلماء المسلمين ومؤسسات أخرى عبرت عن رفضها للسياسة التعليمية الفرنسية، وعلى هذا الأساس نلاحظ اهتمام قادة الثورة بالتعليم والثقافة الإسلامية، ويتضح هذا جليا في بيان أول نوفمبر 1954 الذي تحدث عن القومية الوطنية ومحاولة فرنسا جعل الجزائر أرضا فرنسية رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والديانة والعادات، كما ورد في البيان ذكر عبارة " إخواننا العرب والمسلمين" في إشارة للانتماء العربي الإسلامي⁽²⁾.

أما مؤتمر الصومام فقد تحدث فيه المؤتمرون عن مقومات الأمة من تاريخ ولغة ودين وعادات وتحدث عن انتماء الشعب الجزائري الحضاري(العربي الإسلامي)، ورحب المؤتمرون بانضمام المتقنين إلى الثورة واعتبروا ذلك فشلا لسياسة الفرنسية، كما تحدث المؤتمرون على تعمد المستعمر خنق اللغة الوطنية التي تتكلمها الأغلبية الساحقة من المواطنين (اللغة العربية)⁽³⁾.

وبعد تأسيس الحكومة المؤقتة بتاريخ 19 سبتمبر 1958 عين أحمد توفيق المدني فيها وزيرا للشؤون الثقافية، وهو أحد رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والمتخرج من جامع الزيتونة ومن المتقنين ثقافة إسلامية، هذا وقد جاء في أول تصريح للحكومة ما يلي: "الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب العربي...وهي تتقاسم مع شعوبه التراث الرائع للحضارة العربية الإسلامية"⁽⁴⁾.

ومن جهة أخرى فقد حاول قادة الثورة من تطوير أساليب الكفاح وعدم الاقتصار على الكفاح المسلح، وذلك من أجل إسماع صوت الثورة في العالم، ولذلك رحب قادتها بانضمام طلبة المعاهد والمدارس الحرة والزوايا، كما قاموا بتأسيس أول مدرسة للاتصالات اللاسلكية في أوت 1956، والتي تخرجت منها دفعات من المكونين في مختلف المجالات⁽⁵⁾.

1 Saadallah A .K,la montes du nationalisme en Algerie ,entreprise nationale du livre , alger , 1983, p6.

2 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص ص 77. 78.

3 أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص ص 87.83.

4 أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 94.93.

5 وزارة المجاهدين، الطلبة الجزائريون وثورة التحرير الوطني، ص ص 28.25.

وقد أتت سياسة جبهة التحرير الوطني بانضمام عدد كبير من الطلبة الجزائريين للثورة بعد الإضراب العام يوم 19 ماي 1956، وهو الإضراب الذي أثار دهشة وإعجاب الأوساط الثقافية في العالم، وبرهن على تضامن الطالب الجزائري مع شعبه وثورته المباركة، وزيادة على الطلبة فقد اهتم قادة الثورة بالفن والأدب ، وشارك كل من الفنان والأديب في الثورة كل على طريقته، فأضحت الكلمة رصاصة واللوحة الفنية قنبلة تتفجر في وجه أعداء الحياة⁽¹⁾.

وهذا باختصار أهم ملامح السياسة التعليمية الفرنسية وبعض الوسائل التي انتهجتها الثورة التحريرية لمواجهتها، وذلك من أجل الحفاظ على الهوية الوطنية وإسماع صوت الجزائر الثائرة في مختلف البقاع والأقطار، لأن ما حدث في الجزائر منذ 1830 وإلى غاية 1962 ليس مجرد استعمار عسكري واستغلال اقتصادي ، وإنما هو جزء من صراع ثقافي بين الشعب الجزائري بمختلف فعالياته والإستعمار الفرنسي.

¹ عبد المجيد رمضان، ثوار الجزائر، دار نزهة الألباب، الجزائر، 2005، ص ص 120.115.